اللعب

بقلم الدكتور على عبد الواحد وافى

أستاذ التربية بدار العلوم العليا والأخلاق بقسم التخصص بالازهر

وتاريخ الادب المسرحى بقاعة المحاضرات التمثيلية

تمتاز النهضة الادبية فى مصر على غيرها الآن بتلك الطائفة من الشباب العلماء ، الذين كرسوا حياتهم فى سبيل العلم والادب ، وأصبحوا فى طليعة الشباب العلماء فى الشرق كله .

ومن هذه الطائفة التى ذكرنا الاستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى الذى يعد بحق نجماً متلألئاً فى سماء الادب حديثه وقديمه .

وها نحن أولاء نقدم هذا المقال العلمى الطريف للدلالة على صدق ما نقول .

المحرر

١ — نظريات اللعب

ماهو اللعب ؟ وما أسبابه ؟ وما الوظيفة الجوهرية التى يؤديها فى حياة الطفل ؟ — أسئلة اختلف المشتغلون بعلم نفس الطفل فى الاجابة عليها ، اختلافاً كان له أكبر فضل فى بيان دقائق هذه الظاهرة ، واكتشاف مالها من الأهمية فى حياة الطفل الفردية والاجتماعية ، وأهم النظريات التى قيلت بهذا الصدد تنحصر فيما يلى :

أولا — نظرية الراحة

يرى شالير (Schaller) ولازاريس (Lazarus) وغيرهما أن الوظيفة الأساسية للعب هى إراحة القوى العقلية أو القوى الجسمية من عناء الاعمال .

وهذه أقدم نظرية قيلت فى اللعب (من ١٨٦١ إلى ١٨٨٣) — وقد ترجم قائلوها فى الحقيقة عن الرأى السائد عند عامة الناس ، مع تهذيبهم له ووضعه فى صيغة فنية .

ولا ننكر أن هذه النظرية تشتمل على نصيب من الصحة ، وخاصة فيما يتعلق ببعض

ألعاب من بلغ سن الرشد ، غير أنها مبهمة وغير كافية لشرح جميع مظاهر اللعب ، ويكفى للبرهنة على هذا أن نوجه لها الاعتراضات الآتية : ـ

١ ـ تعب القوى الجسمية أو العقلية يحمل الانسان عادة على طلب الراحة التامة لا على اللعب الذى يتطلب نوعاً من المجهود . فاللعب لا يؤدى فى الواقع الوظيفة التى ينسبها إليه قائلو هذه النظرية ، وإن أداها فبشكل ناقص ومن طريق غير طبيعى .

٢ ـ يلعب الأطفال بمجرد يقظتهم من نومهم ، أى فى وقت تكون فيه قواهم الجسمية والعقلية موفورة ، ليس بها أى أثر لما يسميه قائلو هذه النظرية تعباً ، وتقضى صغار الحيوانات بياض يومها فى اللعب ، مع أنها لا تقوم بأعمال أخرى ، من شأنها أن تجهد قواها العقلية أو الجسمية .

٣ ـ لكل صنف من الحيوانات طائفة خاصة من الألعاب ، فللطفل الانسانى ألعاب محدودة لا يتعداها ، كما أن للهرة ألعابها وللجمل ألعابه . . . الخ ، فلو أمررت أمام الجمل حبلا ماحدثته نفسه باتباعه كما تتبعه الهريرة ، كما أننا لم نر هرة تناطح أخرى فى لعبها معها كما تفعل الجملان . . الخ ، فلماذا اختلفت أصناف الحيوان هذا الاختلاف فى شكل ألعابها ؟ ولماذا كان لعب صغار الانسان غير لعب صغار ماعداه من أصناف الحيوان ؟ ولماذا اختلف لعب كل طائفة من هذه الأصناف الأخيرة عن لعب ما عداها ؟ ـ تعجز « نظرية الراحة » عجزاً تاماً عن تفسير هذه الظاهرة الجوهرية ، التى يتوقف عليها كل موضوع اللعب على بيان أسبابها فبديهى أنه لو كانت وظيفة اللعب مجرد الراحة من عناء الأعمال ـ كما تقول هذه النظرية ـ ما تعددت مظاهره بتعدد أصناف الحيوانات ، وما كانت هذه المظاهر ثابتة ومحددة عند كل صنف منها ، أو على الأقل ما كانت ثمة حكمة فى ذلك .

ثانيا ـ نظرية القوى الزائدة

ليس لدى الطفل من الأعمال الجدية ما يستهلك جميع قواه الجسمية والنفسية ، وقد زودته الطبيعة بغريزة اللعب ، ليفرغ بواسطتها ما لديه من القوى الزائدة عن الحاجة ، مستعيناً فى هذا « التفريغ » بالحركات التى كونتها العادة فى مراكزه العصبية .

وتنسب هذه النظرية ـ التى تفرد تقريباً نقيض ما تقرره النظرية الأولى ـ للعربى الانجليزى (هربرت سبنسر) ، لأنه أول من عرضها بشكل علمى مفصل فى كتابه (علم النفس) وإن كان قد ذكرها قبله ـ ولكن بشكل مجمل وغير فنى ـ الشاعر الألمانى شيلر (Schiller) .

ولا ريب أن وجود بعض قوى زائدة عن الحاجة عند الحيوان : قد تكون من الأمور المساعدة على اللعب ، ولكننا لا نسلم ، مع قائلى هذه النظرية ، لا بأن وظيفة اللعب هى

مجرد (تفريغ) تلك القوى الزائدة ، ولا بأن طريقة اللعب تنحصر فى تكرار حركات قد كونتها العادة فى مراكز الطفل العصبية ، وحسبنا لدحض هاتين النقطتين أن نذكر الاعتراضات الآتية : ـ

١ ـ تبتدىء ظاهرة اللعب عند الطفل بمجرد ولادته : أى قبل أن تتكون عنده أية عادة ، وهذا وحده كاف فى هدم النقطة الثانية من النظرية التى نحن بصدد الكلام فيها .

٢ ـ على أن الألعاب اللاحقة للأطوار الأولى من حياة الطفل ، لا تنحصر فى تكرار حركات قد كونتها العادة من قبل ، فى المراكز العصبية ، بل يتألف معظمها من اختراعات ، أى من مزيج من الحركات الجسمية والنفسية ، للطفل فيه فضل اختراع العناصر ، أو على الأقل فضل التأليف بينها تأليفاً لا عهد له به من قبل .

٣ ـ يوجه للنقطة الأولى من هذه النظرية نفس الاعتراض الثالث الذى وجهناه (لنظرية الراحة) ، فمن البين أنه لو كانت وظيفة اللعب مجرد (تفريغ) القوى الزائدة عن الحاجة ، ما كانت ثمة حكمة فى تعدد أشكال الألعاب بتعدد أصناف الحيوانات ، ولكان تصرف الطبيعة بهذا الصدد ضرباً من التحكم والهوى ، غير مبنى على أى أساس حيوى ، وهذا مالا يمكن أن يسلم به إلا قليلو الالمام بقوانين الطبيعة ، ودقتها فى أعمالها .

٤ ـ على أن الأطفال كثيراً ما يلعبون فى حالات لا تكون فيها قوام الجسمية والعقلية زائدة عن الحاجة ، وكثيراً ما رأينا أطفالا يلعبون وهم فى أشد حالات تعبهم ، حتى يغشاهم النعاس كلالا — ولعبهم بأيديهم — وأطفالا مرضى يلعبون بمجرد أن يأنسوا من أنفسهم قوة بسيطة على الحركة دون أن ينتظروا تكدس قوام وزيادتها عن الحاجة .

ثالثا ـ نظرية الوراثة النوعية

يرث الطفل ، بحكم قوانين الوراثة النوعية ، كثيراً من مظاهر النشاط التى بدت فى الجنس البشرى ، فورث عن الانسانية الأولى الاتجاه نحو الصيد والقنص ، والقسوة على الحيوان ، وعن الاطوار التالية الاتجاه نحو تكوين الجمعيات ، وبناء المنازل . . . . وعن أمم القرون الوسطى الاتجاه نحو أعمال الفروسية . . . . وهلم جرا ، وتظهر لديه هذه الاتجاهات مرتبة حسب ترتيب ظهورها فى الانسانية : فأول اتجاهات تظهر عنده ، تمثل مظاهر نشاط الجنس الانسانى فى أول مرحلة من مراحله : وهلم جرا ، وبما أن كثيراً من هذه الاتجاهات قد أصبح بقاؤها عند الطفل ضاراً به ، أو على الأقل غير مفيد له فى حياته الاجتماعية الحالية ، لذلك زودته الطبيعة باللعب ، ليبرز بوساطته هذه الاتجاهات ، من حيز القوة الى حيز الفعل ، فيجيب بذلك داعيها

ويشبعها إشباعا يترتب عليه القضاء عليها وتطهيره منها ؛ فالطفل حينما يلعب مثلا فى طفولته الأولى ألعاب الصيد يجيب بذلك داعى اتجاه قد ورثه عن أقدم طور تاريخى للانسان ، إجابة يترتب على تكرارها إشباع هذا الاتجاه وبالتالى القضاء عليه ، وهكذا دواليك ، حتى يتقدم على طور الرجولة وقد طهرته ألعابه من جميع الاتجاهات التى نكب بها من قبل وراثته النوعية ؛ والتى لا يتناسب بقاؤها عنده مع الشكل الذى تتطلب حياته الاجتماعية الحالية أن يكون عليه ؛ وبالجملة ليس للعب وظيفة إلا تطهير الطفل من اتجاهات وراثية تأباها بيئته الاجتماعية .

وأول من قرر هذه النظرية بشكلها المتقدم العالم الامريكى (ستانلى هول) سنة ١٩٠٢م ، وقد بناها على عدة أسس ، منها :

١ – نظرية (هيكيل) التى تقرر أن المراحل التى يجتازها الطفل ، فى أى فرع من فروع حياته أثناء تطوره من الطفولة إلى الرجولة ، ماهى إلا تلخيص أى تكرار بشكل مختصر ومرتب لنفس المراحل التى اجتازها الجنس البشرى فى تقدمه من الوحشية إلى الحضارة .

٢ – ماقام به (ستانلى هول) نفسه من التجارب والمشاهدات التى أثبتت له صحة نظرية (هيكيل) فيما يتعلق باللعب ، أى أثبتت له أن اللعب يتطور فى الطفولة تطوراً مشبها لتطور مظاهر النشاط فى الجنس الانسانى ، فقد قرر أن الالعاب الفردية وألعاب الصيد ، هى أول مايظهر عند الطفل ، وتمتد حتى السابعة أو التاسعة من عمره ، وبعدئذ تخلفها الالعاب الاجتماعية وهكذا . وواضح أن هذا التطور شبيه فى جملته بتطور مظاهر النشاط فى الجنس الانسانى نفسه ، فان الاعمال الفردية ، وأعمال الصيد ، كانت أول مظاهر من مظاهر هذا النشاط ، ثم خلفتها الاعمال الاجتماعية وهلم جرا .

٣ – مايراه (ستانلى هول) وبعض علماء النفس معه من أن الاتجاهات النفسية لاتنفك مرهفة الحد ، مادامت داخلية بحتة ، فاذا ما أبرزت من حيز القوة إلى حيز الفعل ، وذلك بتلبية الشخص نداءها ، وبأدائه الحركات الجسمية والنفسية التى تتطلبها وتوحى بها إليه ، هدأت سورتها وضعفت سيطرتها على النفس ، وكلما تكرر إبرازها انخفضت درجة حدتها حتى تمحى محوا تاما ، ولذلك نراه يشبه الطفل فى مثابرته على اللعب بصغير الضفدع لاينفك يحرك ذنبه حتى يتخلص منه .

وللنظرية (ستانلى هول) على سابقتيها عدة مزايا :

منها : محاولة البحث عن أسباب اختلاف نوع الألعاب باختلاف الأعمار ، الأمر الذى لم يتنبه له بتاتا قائلو النظريات السابقة .

ومنها : أنها تتضمن تعليلا لظاهرة ذات أهمية فى اللعب ، لم يفطن لها أيضاً قائلو النظريتين الأخيرتين الذكر ، وهذه الظاهرة هى اتحاد بعض أنواع الالعاب عند أطفال كثير من الامم

الانسانية ؛ ألا ترى أن لعبة (الاختفاء والبحث) فاشية بين صبيان مصر ، وصبيان كثير من الشعوب الأخرى ؟ فنجد لهذه الظاهرة تعليلا أصدق من التعليل الذى تتضمنه نظرية (ستانلى هول) وهو أن الاطفال جميعا يحاكون بلعبتهم هذه الانسان فى عهده الاول الذى اعتاد فيه الصيد وحماية نفسه بالاختفاء من بطش الوحوش ، مدفوعين إلى ذلك بحكم الوراثة الجنسية ، التى زودتهم جميعا بهذا الاتجاه ، وجعلتهم متحدين فيه وفى طريقة إبرازه ، كأنهم أخذوه عن معلم واحد ؟

غير أنها ، بالرغم من تلك المزايا ، غير كافية لشرح كل ظواهر اللعب ، وغير مصيبة كل الاصابة فى الوظيفة التى تنسبها اليه .

١ — فليس بصحيح — كما يدعى — (ستانلى هول) — أن ألعاب الطفل قاصرة على تكرار مظاهر النشاط التى ظهرت فى الامم السابقة ، فكثيرا ما نرى الأطفال ، فى كل دور من أدوارهم ، يأتون فى لعبهم بأمور يقلدون بها أعمالا لم تظهر إلا فى أممهم أو فى عصرهم ، ولا عهد للأمم السابقة بها ، كاللعب بالسيارات والطيارات وكمحاكاة القاطرات البخارية وسائقيها ، والمدارس المنظمة ومعلميها ، وبأمور أخرى يحاكون بها أعمالا تشترك فيها جميع الأمم الانسانية ، حاضرها وماضيها ، كاللعب بالعرائس الذى يقلدون فيه ما تفعله الأم مع ولدها .

٢ — وأكبر ما يؤخذ على (ستانلى هول) خطؤه فى فهم وظيفة اللعب ، فمن الصعب التسليم بأن ظاهرة تشغل كل دور الطفولة ، ويوقف عليها كل نشاط الكائن الحيوانى ، أثناء هذا الدور لا يكون لها وظيفة ؛ كما يقول (ستانلى هول) ، غير تطهير الطفل من بعض اتجاهات ضارة ، نكتسب بها من قبل الوراثة النوعية ، وإلا حكمنا على الطبيعة بالسفه والعبث فى تصرفها مع الكائن الحى ، تنقل إليه بعض اتجاهات من الانسانية التى سبقته ، ثم تشغله طوال طفولته بالعمل على التخلص منها ، على أن الواقع يكذب ذلك ، فالطفلة التى تقضى ردحا كبيرا من طفولتها فى اللعب بالعرائس مدفوعة بغريزة الأمومة المنقولة إليها بواسطة الوراثة ، لا تخلصها لعبها من هذه الغريزة ، بل تنشأ أما رءوما حنونا ، دونها فى هذه العواطف الأمهات اللاتى لم تلعبن أثناء طفولتهن لعبها ، أو على الأقل مساوية لهن فيها ، والطفل الذى يلعب ألعاب الصيد أو الزراعة ، ليس بلازم أن ينشأ مجردا من كل اتجاه نحو الصيد أو الزراعة .

على عبد الواحد وافى